الأسس العلمية لفلسفة لدفيج فتجنشتين

قادري عبد الرحمان

جامعة سيدي بلعباس

يؤكد تاريخ الفكر البشري أنه لا يمكن لفلسفة ما أن تنشأ من فراغ، فهي لا بد أن تعود في بعض أصولها وتصوراتها إلى شروط سابقة أو محددات تساهم ولو نسبيا في توجيه مسارها. وكثيرا ما شكل العلم أحد أهم شروط التفكير الفلسفي. والأمثلة في هذا كثيرة؛ فسقراط يستلهم المنهج الرياضي منطلقا من تعريف المفاهيم المرتبطة بموضوع ما مثلما يبنى الاستدلال الهندسي على تعريف مصطلحات رياضية مثل: النقطة، المستقيم والدائرة وما إلى ذلك. ويؤسس ديكارت نظريته في المعرفة استنادا إلى الرياضيات معتبرا أن البداهة أو الوضوح التام هو معيار الحقيقة. ويقيم إميل دوركايم فلسفته الاجتماعية اعتمادا على نتائج العلوم البيولوجية في عصره. وهذا الأمر ينطبق على فلسفة فتجنشتين، والتي بالرغم مما تتميز به من أصالة وتجديد، إلا أنها لا تخرج عن توجه فلسفي وعلمي له حضوره وهيمنته الخاصة وذلك لمعطيات تاريخية وحضارية في عصر فتجنشتين.

إن الدراسة التحليلية لأعمال فتجنشتين تكشف لنا عن مكونات متعددة الأصول، وتبين لنا كيف توظف المفاهيم والرموز والقواعد الرياضية والمنطقية للتعبير عن حقائق العالم واللغة والفكر . وكيف تساهم الاكتشافات الفيزيائية والكيميائية في بلورة هذه الفلسفة. وكلما تعمقنا أكثر في أصول تلك المكونات وطريقة توظيفها وحاولنا معرفة مختلف الارتباطات القائمة بينها، كلما استطعنا أن ندرك أكثر ما الذي أراده فيتجنشتين. وسنهتم في هذا السياق أولا بالانجازات المنطقية والرياضية من جهة ثم الفيزيائية والكيميائية من جهة أخرى، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مع التركيز على بعض الأفكار الأساسية التي مهدت لفلسفة فتجنشتين وساهمت في تشكيلها،و كذا عرض لبعض الأمثلة التي تبرز بوضوح ما أريد الذهاب إليه.

لقد كان لإنجازات علماء المنطق والرياضيات في تلك الفترة تأثيرا بالغا في نشأة الذرية المنطقية بشكل خاص والفلسفة التحليلية بشكل عام ومن هؤلاء:ديدكيند Dedekind(1831–1916)، جورج كانتور G.Kantor (1854–1918)، تشالرز ساندرس بيرس C.S.Peirce (1914–1938)، جيوسيب بيانو Giuseppe peano (1858–1932)، دافيد هلبرت David Hilbert (1862–1943)، فردريك جوتلوب فريجه F.G.frege (1848–1925)، برتراند راسل (1872–1970) وألفرد وايتهد Alfred whitehead (1861—1947).

لقد تعدت أعمال هؤلاء مجالي الرياضيات والمنطق إلى ما يثيره كل منهما من إشكاليات لغوية وفلسفية. وكان ذلك نتيجة التطورات الجذرية والقفزات النوعية التي عرفتها الرياضيات وبدت تجلياتها منذ بداية القرن التاسع عشر أول الأمر في أعمال الرياضي الشهير غوص Gauss(Carl Friedrich,1777-1855)عندما أثبت إمكانية قيام هندسة لا إقليدية (1816). لكنه رفض نشر ذلك تقديرا لمكانة إقليدس وخشية أن يثير ذلك الفوضى في الأوساط العلمية، ثم في أعمال لوباتشفسكي وريمان. ولكن ما علاقة تلك الإبداعات بفلسفة فتجنشتين؟ أو بأي معنى يمكن القول أنها ساهمت في ظهور هذه الفلسفة الجديدة ؟

كان من المعروف رياضيا أن الدوال متصلة وخاصية الاتصال مرتبطة بالمكان الهندسي، لكن اكتشاف الدوال المنفصلة والتي لا تتحقق فيها هذه الخاصية كانت نتيجته الشك في المكان الهندسي، أي الشك في أحد أهم أسس التحليل، فأصبح هذا الأخير بحاجة إلى أساس، خاصة بظهور الهندسات اللاإقليدية المتباينة في منطلقاتها ونتائجها، ولحل هذه الأزمة حاول الرياضيون رد التحليل إلى الحساب ضمن ما عرف بمشروع تحسيب التحليل، وهو أحد أهم مشاريع فريجه. لكن علم الحساب كان هو الآخر بحاجة إلى الإصلاح.

ولذا كان من الواجب أولا إقامة الحساب نسقا استنباطيا. ولهذا الغرض قدم بيانو وفريجه محاولتين مستقلتين لنسق استنباطي للحساب، وحاول بعض الرياضيين رد الأعداد جميعها إلى الأعداد الطبيعية ومنهم: ديدكند وكانتور وفريجه، وعن هذه الحركة نشأ الاتجاه اللوجيستيقي الذي بدأ برد التصورات الأساسية في علم الحساب للمنطق، أي تعريف الأعداد والعمليات الحسابية منطقيا،ثم شمل المشروع جميع فروع الرياضيات. غير أن المنطق كان عاجزا عن حل مشاكل الرياضيات، ولم يكن يصلح لإعادة بنائها على أسس دقيقة، إذ لم يكن بإمكانه أن يستوعب كثيرا من الأفكار والعلاقات الرياضية أولم تكن لغته كافية لترجمة تلك الحقائق الرياضية. وذلك لأن المنطق ظل يقتصر على قالب فكري واحد (الموضوع —المحمول)، ولكونه ظل مرتبطا بقواعد التركيب الخاصة باللغة اليونانية،ومفتقرا إلى الوضوح والدقة. ومن هنا ظهرت

الحاجة إلى تطوير منطق جديد يحل بديلا للمنطق التقليدي، وقد بدأت حركة إصلاح شاملة للمنطق قبل نهاية القرن التاسع عشر مشكلة بذلك نقطة انعطاف في تاريخ المعرفة.

وفي هذا السياق ظهرت مساهمات عديدة لإقامة المنطق كعلم استنباطي وجعله أساسا لاستنباط القضايا الرياضية ،وقد شكلت تلك المساهمات بعثا لمشروع ليبنز المتعلق بإيجاد لغة رمزية مثالية، تتميز بالدقة والشمولية. ولم تعد هذه اللغة مقتصرة كما سبق أن ذكرت بمجالي الرياضيات والمنطق،بل تعدت ذلك إلى المعرفة الإنسانية بشكل عام. ومادام هذا المنطق الجديد منشغلا بتحديد قوانين الفكر وصياغتها رمزيا فإن هذه القوانين المنطقية–كما رأى فريجه– لن تخص موضوعا دون غيره، وإنما ميزتها الأساسية أنها عامة ومطلقة "فالفكر هو نفسه أينما كان وليس صحيحاً أنَّ هنالك أنواعاً مختلفة من قوانين الفكر لتلاءم أنواعاً مختلفة من الموضوعات المفكر فيها"[1]

والمهم هنا ليس هو تلك الإنجازات،خاصة التي قدمها بيرس وشرويدر وبيانو وفريجه ورسل ووايتهد، وإنما المهم ما تمخضت عنه من نتائج شكلت مصدراً أساسياً لفلسفة فتجنشتين و عاملاً جوهرياً في بلورتها. هذه النتائج يمكن تلخيص أهمها في جملة من النقاط ابتغاءاً للوضوح ومراعاةً للدقة:

أولاً: رفض اعتماد اللغة العادية كلغة فلسفية ومنطقية نظراً لما تنطوي عليه من إبهام ، وبالتالي فإن هذه اللغة ليست مناسبة للتعبير عن البنية المنطقية الأساسية للفكر كما أن استخدام هذه اللغة يسمح بدخول كيانات غريبة متمثلة في كلمات مجردة أو قد تحجب عنا قواعدها اللغوية قواعد المنطق. وعلى سبيل المثال فإن هناك مساواة بين الجملتين التاليتين نحويا، ج1: "شيء ما هو حيوان لبون"، ج2: "شيء ما هو الإسكندر العظيم"، هذا التساوي لا تجيزه اللغة المنطقية لأن " هو "في الجملة الأول تستعمل كرابطة انتماء بين الموضوع " شيء ما" والمحمول " حيوان لبون" بينما في المثال الثاني استخدمنا الرابطة " هو" كرمز للهوية. مما يعني أن استخدام اللغة العادية لا يتسق مع منطق الفكر، وهذا ما يمهد لا حقا لتلك الانتقادات الموجهة ضد الميتافيزيقيا خاصة لدى الوضعية المنطقية.

ثانيا: اعتبار أن قوانين الفكر هي ذاتها قوانين المنطق، أي أن هذه الأخيرة تحكم جميع ما هو مفكر فيه، الأمر الذي يعني وجود لغة منطقية عامة تمثل بنية عميقة للمعرفة، وهذا ما تعبر عنه فلسفة فتجنشتين الأولى، التي تهدف إلى صياغة هذه اللغة المنطقية أو إلى البحث عن الشروط التي تجعل اللغة كاملة منطقيا .

ثالثا: التأكيد على أن ما يحدد معنى كلمة معينة هو استخدامها، وهذا ما تضمنته بعض أبحاث فريجه، إذ يعتبر أن من بين المبادئ الأساسية لكل استدلال، والتي هي مبادئ أو قوانين المنطق العامة، أن لا نسأل عن معنى كلمة بمعزل عن سياقها وهذه الفكرة تشكل أساسا لفلسفة فتجنشتين في المرحلة الثانية. وحسب فريجه فإنه ينبغي "ألا يسأل، البتة، عن معنى كلمة بمعزل عن سياقها في قضية"[2]. وهذه الفكرة ساندتها بعد ذلك مواقف لسانية كذلك الذي طرحه فرديناند دي سوسير حول علاقة الدال بالمدلول.

رابعا : التمييز بين القضايا التحليلية القبلية والقضايا التركيبية أو التأليفية البعدية واعتبار القوانين الرياضية والمنطقية تحليلية، وهذا يعني أنها ليست تركيبية كما رأى جون ستوارت ميل ولا تركيبية قبلية كما ذهب كانط، مع التأكيد على مكانة ودور كل من القضايا التحليلية والتركيبية الأساسي بالنسبة للعلوم أي دورهما في استخلاص وصياغة المعارف العلمية. وإذا كانت القضايا التحليلية، أي قضايا الرياضيات والمنطق لا تقول شيئا عن الواقع إلا أنها مع ذلك تساعدنا على بناء الاستدلالات، أي على الانتقال من قضايا واقعية إلى أخرى واقعية. وهذه الفكرة ذاتها نجدها عند فتجنشتين في تصنيفه للقضايا، وهي في نظره إما تحليلية أو تركيبية أو أشباه قضايا "قضايا مزيفة"، وقد أضاف فتجنشتين هذا الصنف الأخير تماشيا مع الفكرة الأولى، أي لكون بعض الجمل اللغوية لا تتسق مع منطق الفكر.

تلك هي أهم النتائج المترتبة عن التحولات الجذرية في مجالي المنطق والرياضيات والتي ساهمت بشكل مباشر كعوامل موجهة لفلسفة فتجنشتين فماذا عن الأسس التجريبية وبالتحديد في مجالي الفيزياء والكيمياء؟

أثارت المواقف الفلسفية تقليديا مشكلة تركيب المادة ، فطرحت فرضية وجود الذرة من قبل بعض فلاسفة اليونان كديموقريطس وأبيقور وطرحت أيضا لدى بعض المسلمين مثل محمد بن هذيل العلاف (135– 235 هـ) وإبراهيم بن سيار النظام (160–231 هـ) وجلال الدين الرومي(604–672هـ).

وانبعث من جديد التفسير الذري للمادة في عصر النهضة والعصر الحديث لدى كثير من الفلاسفة والعلماء مثل جيوردانو برونو، جاليلو، ديكارت، ليبنز ونيوتن. لكن مفهوم الذرة ظل منذ القديم خاضعا لاعتبارات ميتافيزيقية، ولم يكن بالإمكان أن يبث نهائيا في حقيقة

ما يقوله الفلاسفة عن تركيب المادة وتكوينها. ومع بداية القرن التاسع عشر، قرن التحولات الكبرى أثيرت فرضية الذرة في مجال الكيمياء فتبين أن بعض الظواهر لا يمكن تفسيرها إلا على أساس هذه الفرضية. وتم التعرف من خلال بعض التجارب الرائدة، خاصة تلك التي قدمها جون دالتون John Dalton (1766–1844) مؤسس الكيمياء الحديثة على بعض العناصر الكيمائية كالهيدروجين والأوكسجين والنحاس والحديد. وتبين أن الذرة هي الوحدة الأساسية في تشكيل وحدات كيميائية أساسية تختلف في تركيبها. وهذه الوحدات هي الجزيئات التي تمثل وحدة بنائية تختلف باختلاف الأجسام. كما مهد دالتون لمعرفة العالم الأصغر بفرضياته العلمية المتعلقة بخصائص الذرة كالوزن الذري و الخصائص الفيزيائية والكيمائية للعناصر .

أما الخطوة الأكثر أهمية فهي تلك التي قام بها مندليف Mendeleiev (1834–1907) (Dmitri Ivanovitch) عندما قام بتصنيف العناصر الكيميائية استنادا إلى الوزن الذري والتكافؤ الكيمائي. ورغم توصل العلماء لمثل هذه الحقائق التي تعطي تفسيرا معقولا لتركيبة المادة فقد ظل البعض يشكك في وجود الذرة عمليا معتبرا أنها مجرد فرضية ميتافيزيقية. وكخطوة أخيرة، في طريق طويل لغزو عالم الذرة، وضع أفوغادرو Avogadro (1776–1856) فرضية كانت لها شهرتها ودورها في إثبات وجود الذرة. ومضمونها أن الأحجام المتساوية من الغازات تشمل على نفس العدد من الجزيئات، وقد استطاع العالم الفرنسي جان بيران إثبات صحة هذه الفرضية عندما اكتشف أن حجما مقداره 22.4 ل من أي غاز في الشروط النظامية للضغط والحرارة (76مم — 0 درجة حرارة) يشمل نفس العدد من الجزيئات وهو 6×10^{23} جزيء .

وهكذا تأكد انقسام المادة إلى وحدات بسيطة هي الذرات. وقبل أن يتأكد ذلك بصورة نهائية كان الفيزيائيون في مجال الكهرباء قد وصلوا إلى وجود جزيء مادي هو الإلكترون بعد تجارب متواصلة قام بها بعض العلماء ابتداءا من كولمب والعالم الأيرلندي ستوني إلى الأمريكي مليكان Millikan (Robert Andrews) (1868–1953) الذي أثبتت تجاربه بما لا يطرح شكا وجود الإلكترون باعتباره جزءا من المادة، أي من الذرة، الأمر الذي يعني قابلية الذرة للانقسام وأصبح ينظر إليها كبنية، أي كشيء يتألف من عناصر تقوم بينها علاقات. ولكن التجارب العلمية سرعان ما واجهت صعوبات متزايدة، إذ لم يعد من اليسير إجراء الاختبارات للتعرف بدقة على مكونات الذرة وتفسير ظواهرها أو مواصلة التحليل المادي للذرة. ولم يعد بالإمكان تحديد صفات اللا منقسم، أي الصفات التي تميز الجسيمات المادية الأولية كالإلكترون، ما هو الحجم الحقيقي لجسيم الإلكترون؟ ما هو شكله الأصلي؟ ما هي بنيته الأساسية؟ لم تستطع التجارب إجراء القياس بمفهومه المعتاد مثلا قياس الحجم بتحديد نقاطه وأقسامه ثم قياس ذلك وفق علاقات رياضية. وقد أدت بعض القياسات التي طبقت إلى إقصاء قياسات أخرى أي أن إجراء كل القياسات في وقت واحد أمر لا يمكن تحقيقه، مما يعني غيابا للتحقق التجريبي.

لقد تبين أن إجراء أي قياس، كذلك الذي يتعلق بسرعة الإلكترون، يؤدي إلى تدخل فعلي ومباشر في طبيعة وبنية الواقع المقاس، مما يؤدي إلى تغيير نظام الواقع كما أن هذا التغيير الحاصل يلغي كل توقع أو تنبؤ وذلك لأن التفاعل بين أدوات القياس وبنية الواقع الجديد يتم في مجال لا يقبل المراقبة والتحليل .

لم يعد إذن موضوع الفيزياء والكيمياء كما كان في السابق تلك الطبيعة الموضوعية للأشياء، بل أصبح الطبيعة في علاقتها بالملاحظ، ونتج عن ذلك أن معان ومفاهيم عقلية كثيرة اعتمدت منذ قرون قد فقدت مدلولاتها وأصبحت بحاجة إلى تحديد جديد.وتبعا لهذه النتائج، وفي إطار ما توصلت إليه العلوم الفيزيائية والكيميائية، يمكن أن نفهم كثيرا من أفكار فتجنشتين خاصة المرتبطة بفلسفته الأولى. فظواهر العالم الأصغر قد ابتعدت عن الإدراك العادي. ولم يعد بالإمكان مراقبتها باعتماد أدق الوسائل العلمية. ونفس الأمر يحصل بالنسبة للوقائع الذرية في فلسفة فتجنشتين والتي هي وقائع منطقية، تعرض على أنها أبسط الوقائع ومن الصعب تحديدها بمثال وكذا الأمر بالنسبة لمكونات هذه الوقائع المنطقية من أشياء .

والتماثل مرة أخري يحصل في الأسلوب الذي ينبغي اعتماده للتعبير عن هذا الواقع، أو اللغة التي يمكنها أن تساعد على سبر أغواره واكتشاف قوانينه وصياغتها. بالنسبة للفيزياء والكيمياء أول الأمر ثم علوم أخرى كالميكروبيولوجيا والاقتصاد واللسانيات، فإن الرياضيات ومنهجها الأكسيومي الحديث هي أنسب وسيلة للتعبير وأيضا للتفكير، إذ تم في مجال الفيزياء النظرية استلهام هذا المنهج الفرضي الاستنباطي وتوظيفه لاستخلاص النتائج أو القوانين العلمية دون الاعتماد على التجربة التي أصبحت إمكانياتها محدودة. إننا لا نصل إلى هذا الواقع المادي المعقد عن طريق ملاحظة واستنطاق هذا الواقع تجريبيا، وإنما بواسطة لغة رياضية تساعد على صياغة الفروض الأولية لهذا

الواقع المادي. ثم استخلاص ما ينتج عن هذه الفروض استنادا إلى قواعد رياضية تتميز بالدقة والشمولية والنسقية والقدرة على الإحاطة بظواهر هذا العالم الخفي والدقيق. أما الأسلوب الذي يقترحه فتجنشتين في التعامل مع عالم الوقائع الذرية، فهو الآخر لغة صورية ورمزية دقيقة هي اللغة المنطقية فبواسطتها يمكن التعبير عن العالم ومحتوياته وعن الوقائع والأشياء.

ولما كان البحث العلمي المتواصل في مجال المادة، عبارة عن عملية مستمرة، تكشف يوما بعد يوم أكثر مما كان متوقعا من الأسرار، وأنه لا نهاية على الأقل حاليا لمسار التحليل، فكذلك الأمر بالنسبة لفتجنشتين، الوقائع الذرية بسيطة لدرجة يصعب فيها تحديد معيار ما لبساطتها، وهي مكونة من أشياء أكثر بساطة مما يحول دون تحليلها.

وإذا أردنا أمثلة فهي أبسط من أشياء هذا العالم، بل يمكن أن تقبل هي الأخرى تحليلا. والشيء ليس شيئا محددا واضح المعالم، بل يصعب تعريفه بإثبات صفات معينة، لأن هذا الوصف يحوله إلى واقعة جديدة مكونة من أشياء. إذن فنحن نتكلم في نظر فتجنشتين من الناحية المنطقية عن الأشياء النهائية التي يمكن أن يقود إليها التحليل. و لما كنا لا نحدد واقعا معينا ولا نحصر نمطا من الظواهر الواقعية ولا نقتصر على مثال محدد، فمعنى ذلك أننا نتكلم عن كل ما هو ممكن وعن جميع العوالم التي يمكن التفكير فيها منطقيا. إن نظرة فتجنشتين هنا ليست عدمية تنفي وجود الشيء ،عندما تسارع إلى القول بأنه أشبه باللاشيء " الأشياء لا لون لها "[3]، وإنما نظرته تستبق البحث العلمي مسترشدة به وقبل ذلك بتجربة فلسفية سابقة.لكن ما هو السبيل إلى حقيقة ما قبل أن يثبتها أو ينكرها العلم ؟

إذا ثبت–من وجهة نظر الذرية المنطقية– علميا أو تاريخيا أنه ليس من المفيد في شيء أن نصف العالم، أو نفسر وقائعه استنادا إلى الميتافيزيقا وتصوراتها الفارغة من المعنى، كالمطلق والجوهر والشيء في ذاته،كما أنه ينبغي أن لا نخوض في ذلك، اعتمادا على ما نعرفه في لحظة تاريخية معينة، لا للتغير الحاصل في الإبداعات العلمية فحسب بل إن الواقع الذي ندرسه سريع التغير وعميق الأغوار وأكثر غموضا وخفاءا مما يعيق قدرتنا على رصد مكوناته ونظامه النهائي فإننا سنكون أكثر حاجة إلى الرمز في التعبير عنه، فالرموز تختزل الدلالات المتغيرة ما أمكن مثلما يختزل مفهوم الدالة في صيغة محدودة العلاقة بين عدد قد يكون لا محدودا من المتغيرات.

ويمكن أن نلاحظ ميزة الخفاء هذه لا كخاصية مرتبطة بعالم الذرة في مجال الفيزياء الدقيقة والكيمياء الذرية بل بالظواهر الإنسانية كذلك في عصر فتجنشتين. وكأنما كان كتاب "تفسير الأحلام" (1900م) تعبيرا عن هذه الحقيقة، ففي مجال الحياة النفسية لا يمكن تفسير السلوك إلا بإظهار ما يمارس في إخفاء وكبت، وعالم النفس أعمق وأخفى مما نشعر به واللاشعور هو عالم النفس الحقيقي. ونفس الشيء نجده مثلا في التاريخ لدى مدرسة الحوليات مع بداية القرن العشرين، فالتاريخ لا ينحصر فيما يطفو على السطح، أي فيما هو ظاهر ومدوي من أحداث الماضي بل إن حقيقة التاريخ كامنة فيما يختفي وراء هذا المظهر من حوادث خفية كثيرا ما ينظر إليها على أنها فرعية أو غير فاعلة في مسار التاريخ، ولكننا إذا أردنا بناء الماضي حقيقة فيجب أن نعود إلى جميع وقائعه ونتتبع كل ما هو خفي منها.

هذه الخاصية تتجلى مرة أخرى عند عرض القضايا ضمن الرسالة. فهناك عبارات رتبت مرقمة من 1 الى7، وهناك عبارات فرعية تمثل سبع مجموعات، كل مجموعة تلي إحدى العبارات الرئيسة، حيث تتبع كل واحدة من هذه الأخيرة بعبارات فرعية تشكل تحليلا لها. وإذا كانت الأرقام بالنسبة للأولى هي من مجموعة الأعداد الطبيعية، فإن الترقيم الفرعي يعتمد على الأعداد الحقيقية. ولا شك أن هذه الطريقة تحمل أكثر من دلالة كما أنها في نفس الوقت تطرح أكثر من سؤال.إن هذه الطريقة تبعث من جديد فكرة مفادها أن العدد هو أساس النظام كما رأى فيثاغورس لأن العالم لا يمكن أن يكون معقولا إلا إذا كان منظما ولا يمكن أن يكون منظما إلا إذا خضع للأعداد، وهنا يقترب فتجنشتين من فيثاغورس عندما يستخدم الأعداد كأساس لعرض أفكاره .وقد تم تقديم هذه الأخيرة بطريقة تشير إلى فواصل وقفزات، فما الذي يقابل الأرقام الحقيقية اللامكتوبة من حقائق في العالم الخارجي وفي عالم اللغة ؟

هناك عدة أجوبة محتملة من بينها مثلا وجود حدود لا يمكن تعديها أو أن هناك حد نهائي للمعرفة قد بينته الذرية المنطقية. وحقيقة الأمر أن طريقة الترقيم تلك تدل على قابلية اشتقاق عبارات جديدة تدخل هي الأخرى في إطار ما يمكن قوله أو في الإطار العام الذي وضعته الذرية المنطقية، بحيث تشكل القضايا الجديدة مضمون الفراغ القائم بين القضايا الأساسية.وهذا يعني أن قضايا الرسالة تؤسس لنسق معرفي منفتح وقابل للنمو في اتجاه معين.

ألا يعكس هذا التصور ما هو قائم من إبداعات علمية خاصة في مجال العلوم المادية الدقيقة كالفيزياء والبيولوجيا ؟ ففي مجال الذرة هناك حقائق تم تحديدها كوجود بعض المكونات الذرية كالنواة والمدارات الذرية والنيترونات والبروتونات وتسارعت وتيرة الاكتشافات لتقدم

نموذجا يفسر البنية العامة للذرة. ويرسم هذا النموذج إطارا عاما لما يمكن اكتشافه من جديد أي يحدد جملة خصائص بصورة مسبقة لما يمكن أن يفضي إليه التحليل لاحقا. كأن تكون المكونات الذرية الجديدة أقل كتلة أو أن تتميز بخصائص فيزيائية وكيميائية معينة لتؤدي دورا وظيفيا في تفسير متكامل للنشاطات الذرية. وهكذا نجد أنفسنا أمام ما هو كائن وما تم تحديده وما هو ممكن وقابل للتحديد. وإذا كانت الفيزياء قد نجحت بفضل الرياضيات في صياغة المنهج العلمي الذي يمكنها من تحقيق المزيد من الاكتشافات، فإن الفلسفة حسب الاتجاه الذري المنطقي هي الأخرى ستكون بحاجة ماسة إلى المنهج الذي يمكنها من التعبير بوضوح عن ما يمكن قوله.

إن فلسفة فتجنشتين ليست مصطبغة بنتائج العلوم فحسب، بل تأثرت بالأسس النظرية للمعرفة العلمية والتي تضمنتها العديد من الأبحاث كتلك التي أشار إليها فتجنشتين بشكل واضح، فعندما يقول مثلا:" ارجع إلى كتاب هرتز في الميكانيكا عن النماذج الديناميكية"[4] أي يقصد كتاب "مبادئ الميكانيك" لمؤلفه هينريش هرتز Heinrich Hertz فهو يرشدنا إلى الكتابات التي وجهته إلى بعض المنطلقات الأساسية في فلسفته. ومن بين أفكار هذا الكتاب الأساسية ضرورة وجود مطابقة بين الطبيعة والتفكير، ففيه يمكن أن نقرأ ما يلي:"إن العلاقة بين نموذج ديناميكي وبين النسق الذي يعد نموذجا له هي نفس العلاقة تماما بين الرسوم التي يشكلها عقلنا للأشياء وبين الأشياء ذاتها. لأننا لو اعتبرنا حالة النموذج بمثابة تمثيل لحالة النسق، فإن نتائج هذا التمثيل–التي يجب أن تتضح وفقا لقوانين هذا التمثيل– هي أيضا تمثيل للنتائج التي تنشأ عن الشيء الأصلي وفقا لقوانين هذا الشيء الأصلي. وبناءا على ذلك يشبه الاتفاق بين العقل والطبيعة الاتفاق بين نسقين يكون كل منهما نموذجا للآخر، ويمكننا أن نفسر تماما هذا الاتفاق عن طريق افتراض أن العقل قادر على صنع نماذج ديناميكية فعلية للأشياء، وقادر على العمل معها"[5]. وفي نفس هذا الكتاب الذي رأى فتجنشتين أن قيمته لا تضاهيها قيمة كتاب آخر ورد أيضا: " نقول عن نسق مادي ما أنه نموذج ديناميكي لنسق آخر، حينما يمكن التعبير عن العلاقات الموجودة في النسق الأول بمثل الإحداثيات التي يجب أن تستوفي الشروط الآتية:

أ– أن يكون عدد إحداثيات النسق الأول مساويا لعدد إحداثيات النسق الثاني.

ب– إنه بناءا على التركيب المناسب لإحداثيات كل من النسقين ينشأ تساوي حالتيهما..."[6]

مثل هذه الأفكار ساهمت في تشكيل نظرة فتجنشتين للعالم وللغة وفي القول–حسب الاصطلاح الرياضي– بوجود تطبيق تقابلي بينهما، وفي نظرته لمعنى القضية والصدق المنطقي وكافة تصوراته عن ما يمكن قوله وما يمكن معرفته.

الهوامش

(1) وداد الحاج حسن، رادو لف كارناب: نهاية الوضعية المنطقية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء الطبعة الأولى، 2001، ص : 15.

(2) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(3) فتجنشتين، رسالة منطقية فلسفية، تعريب عزمي إسلام، مراجعة زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968، العبارة 2.0232، ص : 66.

(4) فتجنشتين، المصدر نفسه، العبارة 4.04 ، ص :88.

(5) صلاح إسماعيل عبد الحق، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص : 81 .

(6) فتجنشتين، مصدر سابق، فصل الشروح والتعليقات بقلم المترجم د. عزمي إسلام، ص : 200 .